

# المحاضرة الخامسة

الأهداف :

تمكين الطالب من معرفة أهم حملات الفتح في مرحلته الثانية وإدراك أهمية بناء القيروان في توطين الفتح . إضافة إلى جعله يدرك مدى اندماج البربر ضمن المشروع الإسلامي وتحولهم لجنود فاتحين ، وجعله يستنبط نتائج الفتح على بلاد المغرب .

ب – مرحلة الفتح المنظم والاستقرار :

بدأت هذه المرحلة مع تأسيس القيروان سنة 50 هـ ، التي رأى عقبة أن تكون بعيدة عن البحر متوغلة في الداخل بعيدة عن أي هجوم بيزنطي بحري محتمل ، ويكون المسلمون في أريحية للتصدي لتلك الهجمات ، ناهيك عن قرب هذا الموقع الجديد (القيروان) من السبخة لتتمكن الإبل والدواب من الرعي بسهولة.

شرع عقبة في بناء مدينة القيروان سنة 50 هـ على شكل مدينة حربية محصنة واتخذ بها مسجدا ودارا للإمارة ، سرعان ما صارت هذه المدينة مركزا جاذبا للسكان فقصدها البربر وسكنوها واعتنقوا الإسلام ، وصارت مركزا عسكريا لإدارة بقية الغزوات نحو بلاد المغرب . غير أن ولاية عقبة لم تدم طويلا إذ تم تنحيته سنة 55 هـ .

تم تعيين أبي المهاجر الدينار على رأس ولاية المغرب قيل بأنه بنى مدينة جديدة بمحاذاة القيروان ، وعلى أية حال فقد غزا أبو المهاجر الدينار قبيلة أوربة وأحلافها من البرانس بالمغرب الأوسط وفتح كل المناطق حتى وصل إلى تلمسان ثم صالح كُسيلة الأوربي وأحسن إليه حتى اعتنق الإسلام واتبعه قومه ، وهو دليل واضح على سياسة اللين والدهاء لدي أبي المهاجر الدينار ، إذ كسر التحالف بين الأوربيين ( قبيلة أوربة ) والبيزنطيين ، ثم رجع إلى قواعده الخلفية وغزا قرطاجنة وفتح ميلة ثم عُزل بعد ذلك سنة 61 هـ .

تولى عقبة بن نافع القيادة مرة ثانية سنة 62 هـ حيث قدم إلى القيروان ومعه جيوشه لفتح ما تبقى من المغرب ، وقد بقي في قلبه شيء من أبي المهاجر فقبض عليه وقيده وصادر أمواله ، كما ألقى القبض على كُسيلا وحط من قيمته وسط قومه ، كما جدد بناء القيروان ورمم ما يمكن ترميمه.

لقد نقل لنا الرقيق القيرواني بعض تفاصيل ذلك بقوله : >>رَحَّل عقبة من

الشام ، ولما مر على مسلمة (والي مصر آنذاك) بمصر اعتذر إليه من فعل أبي المهاجر ، وأقسم بالله لقد خالف رأيه فيما صنع ، وأنه وصّاه به ، وأمره بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يعزل عقبة أحسن عزل ، فإن أهل بلده يحسنون القول فيه ، فخالفني وأساء عزلك ، فقبل منه عقبة ، ومضى سريعا لحنقه على أبي المهاجر ، حتى قدم إفريقية ، فأوثق أبا المهاجر في الحديد ، وأمر بخراب مدينته ، وردّ الناس إلى القيروان ، وركب في وجوه العساكر من التّابعين والعبّاد ، فدار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول : يا رب املاها فقها وعلما ، وأعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزّا لدينك ، وذلا لمن كفر بك ، وأعزّها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض ثم عزم عقبة على الغزو في سبيل الله ، وترك بها جندا من المسلمين ، واستخلف عليهم زهير بن قيس << .

غير أن كُسيلا تمكن من الإفلات من محبسه ليُكوّن جيشا من أتباعه ويقتنص الفرصة للهجوم على عقبة بن نافع ، أما عقبة فقد اتجه بجيوشه غربا أخذها معه أبا المهاجر أسيرا مكبلا ، مروا بباغاية (في الأوراس) سالكا طريق الزاب الصحراوي ثم تاهرت ليخطب بعدها على جنده قائلا : >>يا معشر المسلمين ، إنّ خياركم وأشرفكم السابقون منكم الذين رضي الله عنهم ، بايعهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله يوم القيامة فبيعوا أنفسكم من رب العالمين ، فإنكم داخلون في تلك البيعة لكم وعليكم ما عليهم ، وأنتم ما وطئتم هذه البلاد إلّا طلبا لرضاه وغبضا أن يعبد شيء سواه ، فابشروا فكّلما كثر بشركم كان أخزى لهم وأعز لدينكم وربّكم ليس يسلمكم ، فألقوه بقلوب صادقة ، جعلكم الله أولى بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين << .

وصل عقبة بن نافع إلى طنجة وكانت الانتصارات في كل مرة من نصيبه ،

ثم عقد صلحا مع حاكم طنجة يوليان الذي دلّه على عورات البربر ومسالكتهم

وبذلك توغل عقبة حتى وصل بلاد السوس فاتحا كثيرا من مناطقها مثل نفيس وتارودانت ووادي سوس ودانت له قبائل المنطقة ، وبذلك رأى عقبة أن يرجع إلى معسكره بعد أن وصل إلى المحيط الأطلسي وقفل راجعا ، وكان في هذا الوقت كُسيلا قد جمع خمسين ألفاً من المقاتلين والتقى مع عقبة في تهودة سنة 63 هـ ، حيث آثر أبو المهاجر البقاء مع عقبة للقتال معه بعد أن أرسله عقبة مبعدا إياه عن قتال البربر والروم لكن أبا المهاجر رفض وبقي رفقة عقبة ودار القتال حتى استشهد عقبة وأبو المهاجر وكثير من المسلمين وتسامع أهل المغرب بهذا الخبر المفجع وزحف كُسيلا على القيروان .

نقل لنا ابن خلدون مادة خبرية عن استشهاد عقبة بن نافع بقوله : >> فلما قفل عن غزاته وانتهى إلى طُبنة صرف العساكر إلى القيروان أفواجا ثقة بما دوخ من البلاد، وأذل من البربر حتى بقي القليل ( أي القليل من الناس ) وسار إلى تهودة أو بادس لينزل بها الحامية . فلما نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كُسيلا بن لزم ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها، وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه رضي الله عنه حتى إذا غشوه بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضي الله عنهم ولم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان أصحابه في اعتقاله فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن وأحداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد . وقد جعل على قبر أسنمة ثم حصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزور من الأحداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مدّ أحدهم ولا نصيفه << .

بعد أن اضطربت الأوضاع في القيروان تراجع زهير بن قيس البلوي إلى برقة وأقام بها ينتظر المدد من الأمويين حتى وصله وتوجه به نحو افريقية سنة 69 هـ فخرج كُسيلا لقتاله قرب القيروان (مكان يسمى ممس) وتمكن زهير من قتل كُسيلا وتتبع فلول جيشه الهاربة حتى وادي ملوية ، ثم رجع إلى القيروان ونظم

أمرها وأقام عليها كثيرا من أصحابه أما هو فقد رجع إلى برقة حيث استشهد هناك .

أورد الرقيق القيرواني صورة حية عن مجريات المعركة الواقعة بين زهير بن قيس وكسيلة بقوله : >> حشد له وجوه الرجال من العرب ، وبعث إليه الأموال وتسرع الناس معه ، ووفدت عليه الجنود ، أقبل في عسكر عظيم ، يريد إفريقية ، فلما دنا من مدينة القيروان ، وذلك في سنة سبع وستين وبلغ كسيلة بن ليوم الأوربي قدوم زهير عليه .. لا نهاية له ، وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم ، دعا أشرافهم وأكابرهم فشاورهم وقال لهم : إني أردت أن أرحل إلى ممس ( من قرى المغرب ) فأنزلها ، فإن هذه المدينة فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد ، فلا نغدر بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبوا علينا ، ولكن نزل ممس على ماء كثير يحمل عسكرنا ، فإن معنا خلقا عظيما فإن هزمناهم دخلنا معهم إلى طرابلس وقطعنا دابرههم من الدنيا ؛ تكون لنا إفريقية دارا إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا الشعراء فنرجو ألا نهلك ولا يفقد منا إلا قليل فوافقوه فرحل إلى ممس فنزلها وبلغ ذلك زهير فلم يدخل القيروان ونزل على باب سالم وأقام ثلاثة أيام حتى استراح وأراح من معه وزحف في اليوم الرابع ، ووقف على كسيلة وعسكره آخر النهار فأمر الناس بالتزول ، فنزلوا وبات الناس على مصافهم ، ووقفت خيول القوم بعضهم إلى بعض طول الليل فلما أصبح صلى مغلّسا ثم زحف إليه . وأقبل كسيلة ومن معه والتحموا في القتال ونزل الصبر وكثر القتل في الفريقين ، حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة ، وقتل بممس ولم يجاوزها ومضى الناس في طلب الروم والبربر ، فلحقوا كثيرا منهم بمزرعة «ملمجنة» وألحوا فيهم وجدّوا في طلبهم ، حتى سقوا خيلهم من الوادي المعروف بملوية من المغرب ، ففي تلك الواقعة هلك رجال الروم والمشركين من البربر وفرسانهم وأشرافهم << .

بعد استشهاد زهير بن قيس البلوي دخلت افريقية في فوضى وافترق أمر البربر فاختار عبد الملك بن مروان القائد حسان بن النعمان الذي قدم إلى افريقية . وشرع في حملته العسكرية التي كانت سنة 73 هـ على رواية ابن الحكم وفي 74 هـ على رواية ابن الأثير ، وسار حسان بجيشه الجرار حتى نزل بضواحي قرطاجنة

وانزل الهزيمة ببقايا الروم هناك ، ثم حاصرها حتى افتتحها ثم خربها حتى لا تشكل خطراً على الفاتحين ، ثم جمع البربر والروم حشودهم في سطفورة ( في ضواحي تونس ) فتوجه إليهم حسان وهزمهم.

أقام حسان بالقيروان بعض الوقت ثم عزم على قتال البربر الملتفين حول زعيمتهم الكاهنة (داهية بنت ماتية بن تيغان ) ملكة جبل أوراس ، وكانوا لها مطيعين ومنها خائفين ، فلما سمعت بمجيء حسان بجيوشه إلى باغاية هدمتها لكنه نزل عند مسكيانة ودار القتال بينهما وانتهى بهزيمة حسان سنة 75 هـ على الأرجح ، فتقهقرت جيوش المسلمين والكاهنة تلاحقهم حتى استقروا ببرقة ، أما الكاهنة فقد عادت إلى الأوراس وشرعت في تهديم العمران وإتلاف المزارع لصرف المسلمين عن بلادها (كان ذلك اعتقادها) غير أن هذه السياسية ولدت حقدا لدى الروم والبربر فانظموا إلى حسان نكايه في الكاهنة ، وفي هذه الأثناء أغار البيزنطيون على قرطاجنة وقتلوا من بها من المسلمين.

وصلت إمدادات إلى حسان بن النعمان المرابط في برقة ، ثم زحف بجيشه نحو افريقية وانظم إليه البربر والروم الناقمون على الكاهنة ، أما الكاهنة فقد تحصّنت بالأوراس وطلبت من خالد بن يزيد الذي تبنته أن يأخذ الأمان لولديها عند حسان وأوصت أتباعها بالدخول في الإسلام ، أما هي فقد آثرت أن تقاوم وتموت على ملتها ، ووقعت المعركة الفاصلة في بئر العاتر سنة 82 هـ وقتلت الكاهنة وتفرق جيشها وبذلك دانت هذه المناطق لسلطان المسلمين .

وعن مصرع الكاهنة يورد لنا ابن عذاري المراكشي تفاصيل ذلك بقوله : >> ثم إن حسان توافقت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك فدعا حسان عند ذلك برجل يشق به وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب. فقراه وكتب في ظهره " أن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم فأطو المراحل وجدّ في السير " وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه بها إلى الأمير حسان فلم يغيب عن خالد بن زيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول : " يا ويلكم يا معشر البربر ذهب ملككم فيما يأكله الناس " فافترقوا يميناً وشمالاً يطلبون الرجل فستره الله تعالى حتى وصل حساناً فكسر الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتب إليه خالد فوجده قد أفسدته النار فقال له حسان: " ارجع إليه " فقال

الرجل : "إن المرأة كاهنة لا يخفى عليها شيء من هذا " فرحل حسان بجنوده إليه وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم ورحل إليها حسان فلما كان في الليل قالت لابنهما: " إني مقتولة " وأعلمتهم أن رأسها مقطوع موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسناً فقال لها خالد: " فارحلي بنا وخلي له عن البلاد فامتنعت ورأته عاراً لقومها فقال لها خالد وأولادها : فما نحن صانعون بعدك؟ فقالت : أما أنت يا خالد فستدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم ، وأما أولادي فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر غرائم ، ثم قالت : " اركبوا واستأمنوا إليه " فركب خالد وأولادها في الليل وتوجهوا إلى حسان فأخبرها خالد بخبرها وإنها علمت قتلها، وقد وجهت إليك بأولادها فوكل بهما من يحفظهما وقدّم خالد على أعنة الخيل وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت : انظروا ما دهمكم فإني مقتولة ، ثم التحم القتال واشتد الحرب والنزال فانهزمت الكاهنة واتبعها حسان حتى قتلها <<.

وعن انخراط البربر في الفتوحات بما فيهم أولاد الكاهنة يقول ابن عذاري : << وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع العرب فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر وانصرف حسان إلى مدينة القيروان بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم وذلك في شهر رمضان سنة 83 (للهجرة) <<.

بعد ذلك توجه حسان إلى قرطاجنة لتطهيرها من فلول البيزنطيين الذين فروا دون مقاومة ، فعمد حسان إلى بناء مدينة تونس المشرفة على البحر وأقام بها دار صناعة للسفن وبذلك صارت قاعدة بحرية بامتياز ، ثم بنى بها مسجدا جامعاً وداراً للإمارة وثكنات للجند ودون الدواوين ونظم الخراج وعمل على تعليم الناس بالإسلام وسماحته ونشر العربية فاقبل البربر على الإسلام .

وقد ذكر ابن عذاري بعضاً من صنيع حسان بن النعمان في أفريقية

بقوله : << وفي هذه السنة استقامت بلاد أفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على

دين النصرانية. وأقام حسان بعد قتل الكاهنة لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحداً ثم عزله عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر >>.

عاد حسان بن النعمان إلى مصر وعيّن في مكانه موسى بن النصير وذلك أواخر سنة 85 هـ ووصل إلى القيروان سنة 86 هـ فاتبع مع الأهالي سياسة اللين والشدة ، ففتح أجزاء من تونس وغنم فيها وسبى ثم توجه بفتوحاته إلى المغرب الأقصى ، وأرسل فرق جيشه في اتجاهات عديدة في الداخل والساحل فانتصروا وغنموا وسبوا ودانت له مناطق المغرب واخضع بالسيف قبائل هوارة وزناتة وصنهاجة وغنم منهم وصالح كتامة ووصل بفتوحاته حتى بلاد السوس وبهذا فتحت كامل بلاد المغرب عدا مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من قبل القوط ، وهكذا ما إن حلت سنة 90 هـ حتى دانت بلاد المغرب للدولة الإسلامية ، ثم عمد موسى إلى نشر الإسلام بين البربر فانشأ المساجد وأوكل إلى البربر من يعلمهم الإسلام. وعن فتوحات موسى بن النصير يقول النويري : >> فسار موسى حتى قدم

افريقية وعزل عنها صالحا خليفة حسان بها ، فبلغه أن بأطراف افريقية قوما خارجين عن الطاعة فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم وظفر بهم. وأتاه بمائة ألف رأس من سبيهم . ثم وجّه ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه بمائة ألف رأس. ثم توجه هو بنفسه إلى جهة أخرى فأتى بمائة ألف رأس. قال الليث بن سعد: " فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس ولم يسمع بمثل هذا في الإسلام " ثم خرج غازيا إلى طنجة يريد من بقى من البربر فهربوا منه فاتبعهم يقتل فيهم حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد. فاستأمن البربر إليه وأطاعوه. فقبل طاعتهم وولى عليهم واليا. ثم استعمل على طنجة وبلادها مولاة طارق بن زياد. وتركه بها في تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب لتعلم البربر القرآن وفرائض الإسلام. ورجع إلى إفريقية فمر بقلعه مجانة ( بينها وبين القيروان خمس مراحل ) فتحصن أهلها منه فترك عليها من يحاصرها مع بُسر بن فلان ففتحها، فسميت قلعة بُسر. ولم يبق بإفريقية من ينازعه من البربر ولا من الروم >> .